

قراءة نقدية
في تفسير (مارك موفيت) لنزع الإنسانية

أ.حسين حيدر محبوب علي*[1]

يسعى «مارك موفيت» في فصل من فصول كتابه «السرب البشري» إلى مقاربة أحد أكثر المباحث قتامة في الوجود الإنساني، وهو الكيفية التي تتحول بها الحدود التي يرسمها البشر بين «نحن» و«هم» إلى تراتبيات في المكانة والاستحقاق، قد تنتهي إلى إخراج جماعات كاملة من دائرة التعاطف والعدالة، بل ومن دائرة الإنسانية ذاتها. وفي سبيل تفسير هذه الظاهرة، حاول النفاذ إلى جذورها النفسية والعصبية والاجتماعية، جامعًا بين علم النفس الاجتماعي، وعلم الأعصاب، والتاريخ، والأنثروبولوجيا، في بناء تفسيري واحد، يهدف إلى الكشف عن الآليات التي تجعل الإنسان قادرًا على نزع الإنسانية عن أخيه الإنسان.

توفق بالفعل في الكشف عن جانب مهم من الظاهرة، خاصة في تحليله لمفهوم نزع الإنسانية، وبيانه كيف يسبق الإقصاءَ المادي إقصاءٌ رمزي وعاطفي، تُسلب فيه الجماعات

*[1] باحث في الشريعة والأنثروبولوجيا والفلسفة

المستهدفة صفاتها الإنسانية المعقدة، فتُختزل في صور مبسطة، أو تُربط بالحيوانية، والنجاسة، والهوام، حتى يصبح ظلمها، أو تعذيبها، أو إقصاؤها، أقل إثارة للشفقة والندم. ومع ذلك، فإن قوة هذا البناء التفسيري لا تمنع من تسجيل عدد من الملاحظات المنهجية والفلسفية المهمة.

نحن نجد أن كثيراً من الكتابات المتأثرة بالبيولوجيا التطورية وعلم النفس التطوري، تميل إلى رد الظواهر الإنسانية المركبة إلى أصول تطورية وغريزية بعيدة، وهو اتجاه يضيء جانبًا من الحقيقة، لكنه قد يتحول إلى نوع من الاختزال إذا جرى التعامل معه كتفسيرٍ كافٍ. فالقول إن الاشمئزاز من الغرباء أو الحذر منهم قد تكون له جذور مرتبطة بحماية الجماعة من الأمراض والطفيليات لا يكفي وحده لتفسير العنصرية الحديثة، أو الإبادات الجماعية، أو السياسات الاستعمارية، أو نظم الفصل والتمييز؛ لأن هذه الظواهر وإن كانت تبدأ من الجذر الغريزي فإنها تتشكل داخل سياقات تاريخية، واقتصادية، وسياسية، وثقافية، معقدة، تشارك في إنتاجها مؤسسات الدولة، والدعاية، والصراعات على الموارد، والمصالح الأيديولوجية، والذاكرة الجماعية.

كما أن الانتقال من وصف الميل البيولوجي إلى تفسير الظاهرة بأكملها قد يوهم بنوع من الحتمية الطبيعية، مع أن وجود الجذر الغريزي لا يعني استحالة تجاوزه، ولا يمنح أي شرعية أخلاقية للسلوك الناتج عنه. فالإنسان ليس أسيرًا كاملاً لبنيته البيولوجية، وإنما

يمتلك قدرة ملحوظة على إعادة تشكيل استجاباته النفسية والعصبية من خلال التربية، والخبرة، والقيم، والقوانين، والتنشئة الاجتماعية. وقد أظهرت الدراسات الحديثة المتعلقة بمرونة الدماغ أن كثيرًا من الأنماط الإدراكية والانفعالية قابلة للتعديل وإعادة التنظيم، الأمر الذي يجعل الإنسان قادرًا على مقاومة بعض ميوله الأولية وتجاوزها، وهو ما يفسر إمكان نشوء قيم التسامح، والتعايش، والتعاون، بين جماعات كانت تعيش سابقًا في دوائر من العداء والارتياب.

ولا يقتصر أثر التربية والثقافة على تهذيب الميول الفطرية أو تغطيتها بطبقة خارجية، وإنما يمتد إلى إعادة تشكيل طرائق الإحساس والاستجابة ذاتها. فالدماغ البشري يتمتع بدرجة عالية من المرونة، تجعل الخبرة، والتعليم، والخطاب، والدين، والقانون، عوامل مؤثرة في إعادة تنظيم دوائر التعاطف والانتباه والتقييم. ولهذا لا تقوم العلاقة بين الطبيعة والثقافة على التعارض، وإنما على التفاعل المستمر، حتى يصبح الفصل الحاد بين ما هو بيولوجي وما هو مكتسب ضربًا من التجريد النظري الذي لا يعكس التعقيد الفعلي للتجربة الإنسانية.

وفي ذات الوقت، فإن رد العنصرية والعداء إلى السياسة والثقافة وحدهما لا يخلو هو الآخر من قدر من الاختزال؛ لأن المؤسسات والدعايات والأيديولوجيات إنما تستثمر استعدادات المشاعر البشرية الموجودة في الغريزة بدرجات متفاوتة في النفس البشرية، ثم

تعيد توجيهها وتضخيمها وإلباسها لباسًا فكريًا، أو أخلاقيًا، أو قوميًا. فالمشكلة لا تكمن في وجود الاستعدادات الأولية في ذاتها، وإنما في الكيفية التي تُوجَّه بها، والبنى التي تستثمرها. فالدول، والمؤسسات، والأيديولوجيات، والخطابات العامة، لا تخلق الكراهية من العدم، كما أن الغرائز لا تعمل في فراغ مستقل عن التاريخ والمجتمع، وإنما ينشأ الواقع الإنساني من التفاعل المتبادل بين البنية والفاعلية، وبين الميول النفسية والأطر الاجتماعية التي تمنحها اتجاهها النهائي. ولهذا يمكن للاستعدادات ذاتها أن تتحول إلى تعاون وتضامن، كما يمكن أن تتحول إلى إقصاء وعدوان، بحسب المنظومات التي تتولى توجيهها وتعبئتها.

ولذلك فإن الإبادات الجماعية الكبرى إنما هي نتاج تفاعل بين الاستعداد النفسي، والتعبئة الجماعية، والخطاب الأيديولوجي، والبنية المؤسسية، والظروف التاريخية.

ومن المهم التمييز بين العنف الغريزي المباشر والعنف المؤسسي البارد؛ فالاستعدادات الأولية قد تفسر الخوف، والاشمئزاز، والانفجارات العدائية العابرة، لكنها لا تكفي وحدها لتفسير صور العنف الحديث المنظم. فالإبادات الجماعية، وأنظمة الفصل، ومشاريع التطهير العرقي، تقوم على المشاعر الملتهبة، وتقوم كذلك على شبكات من القوانين، والإجراءات، والمؤسسات، والوظائف الإدارية، التي قد يمارسها أفراد لا يحملون كراهية شخصية حادة تجاه ضحاياهم، وإنما يؤدون أدوارهم داخل منظومة

واسعة تعمل بمنطق الواجب، والانضباط، والكفاءة. ولذلك فإن الشر الحديث قد يتجلى في صورة البرود التنظيمي الذي يحول الإنسان إلى شيء، أو ملف، أو رقم، أو مسألة إدارية مجردة.

ومن الملاحظات المهمة أيضًا أن بعض التعميمات المتعلقة بالشعوب والثقافات المختلفة تبدو أقرب إلى الوصف التقريبي منها إلى التحليل الأنثروبولوجي الدقيق. فأنماط التعبير العاطفي لا يمكن جعلها خصائص جوهرية ثابتة للشعوب، كما أنه ليس من المنطقي أن نتصور أن لكل شعب قالبًا عاطفيًا خاصًا به، لأن هذه الأنماط التعبيرية العاطفية تتأثر بالبيئة الثقافية، وأنماط التنشئة، والتقاليد الاجتماعية، والفلسفات الأخلاقية السائدة. ولذلك فإن العجز عن فهم لغة المشاعر عند جماعة معينة لا يدل بالضرورة على فقرها العاطفي، وإنما يكشف عن قصور في أدوات القراءة لدى الطرف الآخر، وعن مركزية ثقافية تفترض أن نمطها الخاص في التعبير هو المعيار الطبيعي والكوني.

ومع ذلك كله، فإن ما يمكن ملاحظته على تفسير «مارك موفيت»، وعلى كثير من المقاربات الطبيعية الحديثة عمومًا، أنها تنشغل بتفسير كيفية نزع الإنسانية عن الآخرين أكثر من انشغالها بتفسير أصل فكرة الإنسانية نفسها. فهي تشرح لماذا يكره الإنسان، لكنها لا تفسر لماذا يعد الظلم شرًا أصلًا، ولماذا يُنظر إلى تشبيه البشر بالحشرات أو الهوام أمرًا

مستهجنًا، ومن أين جاءت فكرة الكرامة الإنسانية التي تجعل الإنسان مستحقًا للعدل والاحترام حتى عندما يكون ضعيفًا أو مختلفًا أو عدوًا.

فهذه المعاني إنما تنتمي إلى المجال الأخلاقي، والرمزي، والميتافيزيقي الأوسع، حيث تتشكل تصورات الإنسان عن الخير والشر، والكرامة، والمعنى، وحدود الانتماء. فالإنسان كما يعيش بالغريزة وبالمصالح، يعيش كذلك بالرموز، والقيم، والتصورات الكبرى، التي تمنحه معيارًا يتجاوز منطق المنفعة المجردة.

ومن الشواهد الدالة على تجاوز الإنسان لمنطق المنفعة البيولوجية الضيق، تلك الصور من التعاطف والإيثار التي تتجه نحو غرباء لا تجمعهم بالإنسان قرابة، ولا مصلحة، ولا رابطة قومية أو عرقية. فالاستعداد للتضحية من أجل إنسان مجهول، أو الدفاع عن جماعات بعيدة، أو الإحساس بالأسى تجاه مصائب شعوب لم يلتق بها المرء قط، كلها ظواهر يصعب اختزالها في منطق حفظ الجينات أو حماية الجماعة المباشرة. وهي تكشف عن أن الإنسان يعيش داخل أفق رمزي وأخلاقي أوسع من الحسابات الطبيعية المجردة، وأن معنى الإنسانية يتجاوز حدود المنفعة المباشرة والروابط الأولية الضيقة.

ولهذا فإننا ننظر إلى تاريخ الحضارة الإنسانية كتاريخ للصراع بين دوائر الانتماء الضيقة ومحاولات توسيعها. فالإنسان يميل بطبيعته إلى بناء حدود بين «نحن» و«هم»، وتضييق دائرة التعاطف على جماعته الخاصة، بينما جاءت النظم الدينية، والأخلاقية، والفلسفية

الكبرى، لتوسيع هذه الدائرة، وإدخال الغريب، والمختلف، والضعيف، ضمن مجال الاعتراف الإنساني. ولهذا فإن الحضارة تسعى لإقامة منظومات رمزية، وأخلاقية، وقانونية، تحول دون تحول الاستعدادات الأولية الكامنة في النفس البشرية إلى ظلم، وإقصاء، واضطهاد.

وعلى هذا، فإن نتائج «مارك موفيت» تمثل أداة تشخيصية بالغة القيمة، تكشف جانبًا مهمًا من البنية النفسية والاجتماعية التي تجعل البشر قادرين على نزع الإنسانية عن بعضهم بعضًا، لكنها لا تعطي تفسيرًا نهائيًا وشاملًا للظاهرة. فالإنسان كائن بيولوجي، وتاريخي، وثقافي، وأخلاقي، في آن واحد، وأي مقاربة تختزل هذا التعقيد في عامل واحد، مهما بلغت قوتها العلمية، ستظل قاصرة عن الإحاطة الكاملة بحقيقة الكائن الإنساني، الذي يحمل في داخله قابلية الإقصاء كما يحمل قابلية تجاوز الإقصاء، ويحمل بذور العصبية كما يحمل القدرة على توسيع معنى الإنسانية حتى يتجاوز حدود القبيلة والعرق والجغرافيا والمصلحة إلى أفق أرحب وأعمق.

***

**

*